الأدب المقارن

عنوان المحاضرة: السيرة الذاتيّة للأديبَين مكسيم غوركي وحنّا مينه

سيرة الأديب مكسيم غوركي:

الأديب الروسيّ مكسيم غوركي (١٨٦٨-١٩٣٦) كتب سيرته الذاتيّة في النصف الأول من القرن العشرين، وهي ثلاثة أجزاء "طفولتي" كتبها ١٩١٣-١٩١٤م. "بين الناس" ١٩١٥-١٩١٦م، "جامعاتي" ١٩٢٣م.

ذكر في "طفولتي" وفاة والده وعمره أربع سنوات وانتقاله مع أمّه إلى بيت جدّه والد أمّه، ومعاناته عقاب جده، وطيبة الجدة، وسردها الحكايات له وللجيران وتعلّمه على يد جدّه القراءة وتنتهي هذه المرحلة من حياته بوفاة والدته، التي توفيت وعمره عشر سنوات.

وتحدث في رواية "بين الناس" عن الأعمال الكثيرة التي قام بها، والمشقّات التي واجَهها نتيجة ذلك وعن وفاة أخيه من أمّه، ووجود زوج الخياط والمرأة الملقبة بالملكة مارغو اللتين زودتاه بالكتب فكان لهما أثر كبير في تثقيفه.

ذكر في رواية "جامعاتي" (١٩٢٢) سفره إلى قازان ليلتحق بالجامعة، ولكنّ ظروفه السيئة منعته من ذلك، فعمل في مخبز عند ديرينكوف، واجتمع بطلاب الجامعة، وطلاب الأكاديمية اللاهوتية والكلية البيطرية الذين كانوا يسكنون منزل ديرينكوف وكانت أفكارهم عامرة بالقلق على مصير الشعب الروسيّ، ثمّ انتقل إلى روماس صاحب الأفكار الاشتراكية الذي غذّى أفكار الواقعية الاشتراكية لدى مكسيم.

مكسيم غوركي هو الاسم المستعار للكاتب ألكسي بيشكوف والمقصود بغوركي المُرّ، لذلك أطلق على نفسه هذا الاسم، مات والده وهو طفلٌ صغير رحلت به والدته إلى بيت جده، والمقصود هنا والدها، وكان جدّهُ رجلاً قاسياً، أمّا جدّته فقد كانت إنسانة طيبة لم يمضِ على وصولهما مدّة وجيزة حتى دار شجارٌ عنيف بين خاليه ميخائيل وياكوف، وأخذا يصرخان في وجه الجدّ.

كان مكسيم يخاف جدّه، ويشعر أحياناً بأنّه شرّير، وفي لهجته الكثير من التّهكم والاستهزاء يذكر لنا حادثة عن قسوة جدّه، فقد قام بصبغ غطاء المائدة ذلك الأمرُ أزعج جدّه فهجم عليه ولم تستطع الجدّة أن تخلصه من بين يديه، وضربه حتى فقد وعيه وبقي بعدها مدّةً يعاني المرض.

كانت مدّة مرضه إحدى المراحل المهمّة في حياته، شعر فيها أنّ روحه قد تألّمت أكثر من جسده، وأصبح حسّاساً بصورة غير مألوفة، وجرّاء ذلك تشاجرت أمه وجدّته؛ لأنّ أمه برأي الجدّة لم تبذل جهداً لانتزاعه من بين يدي جدّه وفي أثناء ذلك صرّحت الأمّ أنّها لولا ابنُها لهربت؛ لأنّها لا تستطيع الحياة في ذلك الجحيم. مكسيم شديد التعلّق بجدّته، ولم يذكر خلال تلك المدّة من حياته إلّا رفقته لها فكان يذهب معها إلى الساحة، والحديقة، أو عند الجيران، أمّا والدته فإنّها لم تكن تقيم بينهم مدّة طويلة فقد كانت تختفي من دون أن تترك وراءها أثراً يذكّر بها.

حُرَم من النزول إلى الشارع لميله إلى القتال، ولذلك لم يُنشِئ صداقات، وكان سائر أبناء الجيران يناصبونه العداء بل أصبحوا يتلذّذون بإغاظته، ولم يكن يخرج إلى الشارع حين يسوده الهدوء، فإذا سمع صيحات الأطفال نسي ما أقرّه الجدّ بعدم النزول إلى الشارع

وذهب إلى الساحة. كان يؤلمه من مناظر الشارع رؤية رئيس العمال السابق لديهم جريجوري إيفانوفيتش الذي فقد بصره يمشي في الشارع يطلب من الناس الصدقات.

كان يرى أنّ أفضل الأوقات لديه التي كان يمضيها مع جدّته بعد الغداء حيث تروي له قصصاً خرافية رائعة، وما سامعه من روايات جدّته كان له دورٌ في صقل موهبته، وحثّه على التأمّل، وتشكيل مخزون شارك في دعم أفكاره عندما بدأ بالكتابة والتأليف.

قرّرت والدته تعليمه، فاشترت له بعض الكتب وأوّلها "مبادئ القراءة الروسية" فتعلّم خلال أيام حروف الهجاء المستعملة في غير الكتب الدينية، ولم تكتفِ والدته بذلك بل أرادت أن يحفظ الشعر غيباً.

بعد انقضاء عيد الميلاد أخذته أمّه مع ساشا ابن خاله ميخائيل إلى المدرسة، وكان ساشا يسكن بيت جده، وسبب وجوده هناك هو زوج والده التي أخذت تعذّبه بعد وفاة والدته ناتالي فتكفّل به جده نزولاً عند رغبة جدّته، التحقا بالمدرسة مدّة شهر واحد ولكنّه سرعان ما كره المدرسة، فقد غفا ابن خاله ذات يوم في أثناء الدرس، وأخذ يصيح في نومه وحين استيقظ استأذن في مغادرة الصف، وسخر منه التلاميذ بقسوة، وفي اليوم الآتي توقّف ساشا عن السير، وأخبر مكسيم بأنّه لن يذهب إلى المدرسة وسينطلق في نزهة، وقد دفن كتابه في الثلج.

أُرسِل مكسيم ليعيش مع أمّه بعد زواجها، وبدورها أرسلته إلى المدرسة مرّة ثانية، ولكنّه كان كارهاً للمدرسة، وهنا يبيّن فقره الشديد من خلال ثيابه التي ارتداها وسببَ كرهه للمدرسة: "مرّت أيام طويلة فارغة قبل أن أُرسَل مرّة أخرى لأعيش مع أمي في قبو منزل

حجري أرسلتني أمي فوراً إلى المدرسة فأبغضتها منذ اليوم الأوّل، ظهرتُ فيها للمرّة الأولى لابساً أحد أحذية أمي مرتدياً معطفاً خِيط لي من أحد قمصان جدّتي."

واجه مكسيم ظروفاً قاسية في تلك المرحلة من حياته تحمل الكثير من الشقاء والتعب فقد بدأ بالعمل في مخزن لبيع الأحذية في المدينة، وقد كان كارهاً صاحب المحل فهو لا يتوانى عن تهديده بزجّه في السجن إذا سرق أحذية أو مالاً منه.

عاد جدّه ذات يوم من المدينة، وأخبره بأنّه سيذهب للعمل عند ابن أخت الجدّة، لكنّ الجدّة رأت أنّه لم يحسنِ الاختيار، فردّ عليها ربّما يجعلونه رسّاماً، وذهب مكسيم مرّة أخرى إلى المدينة حيث سيسكن بيتاً أبيضَ مؤلفاً من طابقَين كالنعش، فالمكان موحش تعمّه القذارة. يذكر إرهاقه في العمل، وشراسة تلك العائلة فيقول: "كان عندي كثير من الأشغال أقوم بوظيفة خادم فأغسل أرض المطبخ، وأنظّف السماور، والأواني النحاسية يوم الأربعاء، ونهار السبت أغسل أرض البيت جميعها، والدرجين، وأقطّع الحطب، وأحمله إلى فوق لأجل الموقد، وأغسل الصحون، وأنقّي الخضار، وأرافق السيدة إلى السوق حاملاً سلّة المؤونة، وأركض إلى دكان البقال والصيدلية."

لم يتحمّل مكسيم هذا الوضع كثيراً، وهرب مع مطلع الربيع وهو يشتري طعام الفطور، وقرّر ألّا يعود إلى دار معلمه، وبقي طوال يومين وثلاثة أيام يتجوّل على ضفة نهر الفولغا يطعمه الحمّالون الطيبون، وينام معهم على الأرصفة ليلاً، وقد أخبره أحد الحمّالين أنّ تطوافه لا فائدة منه، ولماذا لا يعمل على الباخرة الدوبري؟ لأنّهم بحاجة إلى غسّال للصحون. كان عمله على الباخرة منحصراً في غسل الصحون والسكاكين والشوك والملاعق وكان يبدأ بالعمل منذ السادسة صباحاً حتى منتصف الليل.

نصح سموري مكسيم بالقراءة؛ لأنّ الكتب تخبره بكلّ ما يحب أن يعرف، ووصف الكتاب بأنّه شيء نادر وثمين، وتمنّى لو أنّه ثري لأرسله إلى المدرسة، وبرأيه أنّ الفتى الجاهل كالثور يضعون القيد في عنقه، ويسلخون اللحم عنه باستغلاله في عمل شبه متواصل من دون رأفة به.

ترك مكسيم المركب في سارابول من دون أن يودّع أحداً، وعاد إلى جدّته وقد استقبلته استقبالاً مؤثراً، وسأله جده بسخرية: هل وفّر ذهباً كثيراً؟ وكان جواب مكسيم بأنّ ما وفره يخصّه وحده، وقد اضطر مكسيم بسبب الفقر والعوز إلى صيد العصافير، ولكنّه كان يشعر بالشفقة على تلك الطيور، وبالخجل من حبسها في أقفاص، فكان يشعر بالغبطة لمجرد مراقبتها.

تعرّف مكسيم زوج الخياط، وهي امرأة مثقّفة ورغب برؤيتها مرّة أخرى؛ لأنّه أراد أن يطلب منها كتاباً، فعاد إلى بيتها فأعطته الكتاب، وعند وصوله إلى البيت لفّه بقميص نظيف، وخبّأه في العليّة خشية أن يراه الأسياد، ويمزّقوه وبينما كان ينشر الغسيل في العليّة تذكّر الكتاب، فقرأ السطر الأوّل منه ثمّ تابع قراءته حتى شعر بالبرد، وحين انصرف أسياده في المساء لحضور صلاة الغروب نزل بالكتاب إلى المطبخ، وهو يقرؤه راوده شعور بأنّه انتقل بسهولة إلى عالم آخر.

ويذكر مكسيم هنا رغبته في القراءة، ومعاناته الشديد في سبيل ذلك: "كانت الليلة مشرقة وقمر برّاق يشع في السماء، بيد أنّ الحروف أدقّ من أن أميزها كنت أعاني شوقاً ملحّاً إلى القراءة، فأخذت من الرّف قدراً نحاسية وحاولت أن أعكس بها نور القمر على الصفحات فلم أنجح ..."

لم يكن يحب القراءة بصوت مرتفع؛ لأنّها تشوش فهمه لمضمون ما يقرأ، كان يقرأ موضوعات "كراسة موسكو" في أمسية واحدة، فأشار عليهم بقراءة المجلات الموجودة تحت السرير في غرفة النوم، فقد منحته تلك المجلات خدمة عظيمة؛ فبسبب استمتاعهم بقراءتها استطاع حمل تلك المجلات إلى المطبخ وقراءتها ليلاً.

إنّ السماح له بالقراءة من معلّمه أشعره بسعادة كبيرة، فقد قرأ الليل بطوله حتى بزوغ الفجر وأدى ذلك إلى إصابته بشيء من الألم في عينيه، وكانت المرأة العجوز تحذّره من كثرة القراءة، وأنه سيصاب بالعمى إذا بقي على تلك الحال من النهم الشديد للقراءة ليلاً وسبب قراءته ليلاً انشغاله بالأعمال الكثيرة في النهار

كان مكسيم يكره أن تعامل المرأة بإساءة ويجد أنّها رمز للحياة يقول: " كانت طريقة معاملتهم للنساء تغضبني جداً؛ لأنّني وأنا متشبع بالروايات الفرنسية، أعدّ المرأة أفضل شيء في الحياة، وقوي عندي هذا الرأي بجدّتي، وحكاياتها عن العذراء وفاسيليا السعيدة، وبالغسّالة ناتاليا، وبهذه المئات بل الألوف من النظرات والابتسامات التي رأيت النساء أمهات الحياة، ويغمرن بها الوجود الفقير المحتاج ويملأنه بالفرح والحب..."

لا يمكن أن ننكر دور زوج الخياط في دفع مكسيم نحو المطالعة وذلك بإيقاظ تلك الرغبة الكامنة في داخله، فهي أحد المحاور الأساسية في حياة مكسيم الأدبية التي استند إليها في بداية حياته. أعطته كتاباً صغيراً، وأكّدت له أنّه سيعجبه، وطلبت منه أن يحافظ على نظافته وكان الكتاب مجموعة من قصائد بوشكين فقرأها، وشعر بنشوة كبيرة فقد سحرته تلك القصائد وموسيقاها فكانت أفضل ما قرأ، ولكثرة ما أعاد مطالعتها حفظها. لم

يسنح الوقت للملكة مارغو كي تُدخِل مكسيم مدرسة بسبب حادث حدث أيام عيد الثالوث المقدس فقد أُصيب جفنا مكسيم بتورم شديد أطبق عينيه إطباقاً تاماً.

السيدة التي لقبها بالملكة مارغو كزوج الخياط شاركت في مساعدة مكسيم من خلال إعارته الكتب، وتشجيعه على المطالعة، وتعليمه بنفسها فكانت حلقة أخرى من السلسلة التي دعمت مكسيم، وصقلت موهبته ليصبح فيما بعد كاتباً يلمع اسمه في سماء الأدب.

عمل مكسيم في معمل للأيقونات، وهو مؤلف من غرفتَين في بناء كبير نصف حجري. أخذ مكسيم يبحث عن الكتب، ويقرأ للرجال كلّ ما يعثر عليه منها، حتى إنّ المعمل يخيّم عليه سكون يشبه سكون منتصف الليل، كانت الوجوه هادئة مغرقة في التفكير، وبين مدّة وأخرى يُنطَق بكلمة مديح في حقّ المؤلف، والبطل وكان مكسيم يحبّ فيهم ذلك الانجذاب نحوه، وقد رأى سيتانوف أنّ تلك الكتب كالربيع حين تفتح النوافذ يُترَك هواؤها اللطيف يتدفّق إلى الداخل للمرّة الأولى.

لجأ مكسيم بعد مدّة مع صديق له يُدعى بافل إلى وسيلة تسلية جديدة، وهي القيام بتمثيل بعض الفصول الهزلية من تأليفهما فطليا وجهيهما بالألوان، ووضعا الشعر المستعار على رأسيهما، وسوالفاً من نبات القنب، وبذلك قتلا سأم الناس وأشعرا الناس بالغبطة.

عاد مكسيم مرّة أخرى إلى عمله مع معلمه السابق، فوجد أنّ الشقة التي كانت تسكنها الملكة مارغو تقطنها الآن أسرة أخرى.

أبدع مكسيم في عالم الأدب، ولمع اسمه وقد ذكر الناقد السوري جلال فاروق الشريف أنّ مكسيم والمؤسس الفعلي للواقعية الاشتراكية يقول: "إذا كان بوشكين مؤسس الأدب الروسيّ الكلاسيكي فإنّ مكسيم غوركي مؤسس الأدب السوفياتي، كان الجسر الحي

الذي ربط الماضي بالمستقبل، أي بين تقاليد الواقعية في الأدب الروسيّ الكلاسيكيّ، والواقعية الاشتراكية التي يُعدّ مكسيم مؤسسها الفعلي."

تعطّلت أعمال أرض المعرض حين قدم الشتاء، فعاد إلى البيت، وعادت الأعباء نفسها التي كان يتحمّلها فالأعمال تأخذ النهار بطوله أمّا في وقت العشاء فيكون حرّاً، وهكذا عاد لقراءة روايات منشورة في "النيفان" و"كراسة موسكو" لأسياده وفي ساعات الليل يطالع الكتب القيمة، ويحاول نظم الشعر. هذا هو مكسيم لا فراغ لديه ولا راحة فقد كانت راحته بين الكتب وسعادته بتقليب صفحاتها، ومعرفة ما تحمله في طياتها في وقت فراغه يقرأ لأسياده، وفي وقت راحته وهو النوم ليلاً الذي يتطلبه الجسد ليستعيد قوّته، ويسعى إليه البشر جميعهم يفضّل عليه المطالعة وصقل موهبته الشعرية.

انطلق مكسيم إلى قازان بعد ثلاث سنوات في فصل الخريف وفي داخله أملٌ بإيجاد وسيلة ينهل منها العلم في ذاك المكان، وقد وضع فكرة الدراسة الجامعية في رأسه طالب ثانوي يدعى بيفرينوف أوضح له أنّ الجامعات بحاجة قصوى إلى شبان من أمثاله.

كانت كلّ كسرة خبز يبتلعها في بيت بيفرينوف تثقل على ضميره بقسوة؛ بسبب فقره الشديد فأخذ يبحث عن عمل، فيغادر البيت في الصباح، ويتغيّب حتى يتأكّد أنّ الغداء انتهى، ويقضي أحياناً الساعات في قبو بين القطط والكلاب يتنشق روائح العفونة يصغي إلى المطر المتهاطل وأنين الرياح ولم يلبث أن فهم أنّ الجامعة ليست غير وهم خدّاع، ولكن جامعة الحياة التي تثقّف فيها صقلت معرفته.

تعرّف مكسيم أندريه ديرينكوف، وهو صاحب بقالية صغيرة في نهاية شارع فقير، كان يمتلك أروع مكتبة في قازان تحتوي كتباً نادرة يتداولها الطلاب في عدد من المؤسسات الثقافية المختلفة. إضافة إلى افتتاحه مخبزاً عمل فيه مكسيم.

خُيّل لمكسيم أنّه متيّم بماريا شقيقة ديرينكوف، فسنّه وشخصيته، وحياته المعقدّة تتطلب منه أن يصاحب النساء؛ لأنّه بحاجة إلى حنان، وعلى الأقل إلى عناية امرأة تعطف عليه بحاجة إلى شخص يحدّثه بصراحة عن نفسه، ويساعده في تنظيم تشويش أفكاره، وفوضى عواطفه المختلطة التي تملأ ذهنه.

عزم مكسيم في شهر كانون الأوّل على الانتحار، واشترى لأجل ذلك مسدساً ومعه أربع رصاصات، أطلق رصاصة على صدره، لكنّ الرصاصة خرقت رئته وبعد شهر كامل عاد إلى العمل في المخبز من جديد بعد أن شعر بالحماقة، والخجل من تصرفه.

بعد مدّة قصيرة كان خارجاً من المخبز في نهاية آذار، فوجد شخصاً جالساً وراء الدكان، سأل مكسيم أن ينتقل إلى العمل عنده ليكون مساعداً له في التجارة، وأخبره بأنّه يمتلك مكتبة جيدة، وباستطاعته أن يساعده في دروسه، فوافق مكسيم على عرضه، وقبل أن يذهب وأعلمه: بأنّ اسمه روماس. وقد نمّى روماس لدى مكسيم بذور الواقعية الاشتراكية التي تهتمّ بخلق مستقبل أفضل للإنسان.

سيرة الأديب حنّا مينه:

جرت أحداث سيرة الأديب السوريّ حنّا مينه في النصف الأوّل من القرن العشرين فهو من مواليد اللاذقية سنة ١٩٢٤م، وقد كتب سيرته في ثلاثة أجزاء هي "بقايا صور" ١٩٧٥، "المستنقع" ١٩٧٧م، "القطاف"١٩٨٥م. ذكر في "بقايا صور" مرحلة الطفولة التي

كانت مليئة بالفقر والخوف، وتولد الخوف نتيجة رحيل الوالد بين مدّة ومدّة، وذاك الوالد دائم التلهف إلى الشرب والجنس وترك الأولاد مع أمهم وحيدين، وأكثر ما آلمهم عندما تركهم في حقل من حقول التوت المترامية الأطراف في بلدة السويدية تحت رحمة المختار الظالم الذي تحكّم بمصير الأم وأولادها في أثناء سفر الوالد.

أتى الحرير الاصطناعي ودمّر صناعة الحرير الطبيعي، فهاجرتِ الأسرة إلى قرية الأكبر، وهناك فتك الجراد بمواسم الحبوب، جاع الفلاحون وهاجموا مخزن الإقطاعي وحدثت الانتفاضة التي قُتِلت فيها زنوبة التي شجعت الفلاحين على الثورة.

أمّا رواية "المستنقع" فقد تحدّث فيها عن سفرهم إلى حي الصاز في إسكندرونة، وقد كانت أرضه ذات رائحة نتنة تغمرها المياه في الشتاء، وأغلب الصيف، فيه كثير من النباتات المستنقعية، وقد التحق بالمدرسة الأرثوذكسية، وهو في الثامنة من عمره، ثم المدرسة الرشدية، وقد سُلخ لواء إسكندرونة عن سورية في تلك المدّة عام ١٩٣٩م.

وأهمّ أحداث رواية "القطاف" هي هجرة الأسرة إلى اللاذقية بعد سلخ لواء إسكندرونة والعمل في ريفها في قطاف الزيتون، ومعاناة الفلاحين ظلم الإقطاع وأتباعه الشوباصي والمطعون.

وُلد حنّا مينه في جزء من ريف اللاذقية، ولم يعرف تاريخ مولده، فرحت أمه بولادته؛ لأنّه وحيد على ثلاث بنات وسيبقى وحيداً، لأنّ أخوته الذين وُلدوا بعده ماتوا بالملاريا والتيفوئيد والجدري، عندما دخل المدرسة الابتدائية استغرب معلمه؛ لأنّ تاريخ ولادته المسجّل في الأحوال المدنية هو ١٩١١م وأخبره بأنّ هذا غير ممكن وفيه غلط؛ لأنّه بذلك سيكون أكبر من أستاذه.

يبدو أنّ المختار وضع التواريخ من عنده، وحمل سجلّه إلى الأحوال المدنية وأخرج لهم دفتر عائلة، وعاد الأب به إلى البيت فوضعته الوالدة تحت الثياب في صندوق عرسها وهو خزانتهم الوحيدة، ونُسِي هناك حتى كبر ودخل المدرسة فاكتشف المعلم الغلط، وكان هناك غلط آخر وهو محلّ ولادته فقد ولد في اللاذقية وسُجّل في السويدية وبقي هذا الغلط في هويته. أمّا عمره فقد جرى تصحيحه فصار ١٩٢٤م بشهادة الذين حضروا ولادته في مدينة اللاذقية، وهكذا صار يعرف تاريخ ولادته ومحلّها.

اضطرت والدته بسبب الفقر إلى تركه في البيت مع أخواته الصغيرات لتذهب إلى أناس أغنياء في اللاذقية، وتُرضِع ابنهم وهذا الأمر أحزنها لكنّها باعت غذاء ابنها الصغير؛ لأنّ والده كان غائباً في إحدى رحلاته، ولم يكن لديهم ما يأكلونه ولم تستطع أن تعمل خادمة؛ لأنّه كان رضيعاً فاضطرّت إلى بيع نصف غذائه إلى أخيه في الرضاعة واسمه جول. نجد أنّ الأم هنا المسؤولة عن الأسرة.

إنّ غريزة الأمومة التي تحملها هذه الأم الطيّبة جعلتها تتعب، والتعب ليس لجسدها فقط بل لروحها أيضاً فتمنع نفسها من النوم لتكون حارساً ليلياً لأولادها، ولا تُشعِر أولادها بالخطر المحيط بهم؛ لأنّ الأولاد يشعرون بالنعاس، ويتمكنون من النوم بسهولة لما توفّره لهم الأم من الأمان.

لمست في سيرة الكاتب حنّا مينه صراعات عديدة منها صراع الأم من أجل البقاء وحماية أولادها في الكوخ الموجود في حقل التوت في السويدية بعد أن سافر الوالد وتركهم، وصراع حنّا الذي كان بطل سيرته ضد الظلم المتمثل بالإقطاع ورجاله الوكيل والشوباصي

في ريف اللاذقية، وقد جعل حنّا الصراع ركيزة أساسية في رواياته الأخرى؛ بسبب الحياة الاجتماعية القاسية التي يحياها أبطاله.

لقد لمحت فقراً شديداً من خلال ما قرأته في هذه السيرة فالوضع الاقتصادي متردٍّ ويبدو أنّ هذا الوضع كان يطال الأغلبية في مسكنهم ولباسهم وأكلهم والذي زاد الطين بلة وجود الأشقياء الذين يقتحمون البيوت ليلاً، فيسرقون بعض محتوياتها، أو الحيوانات التي يجنيها السكان وأشياء خاصة بهم، وقطّاع الطرق الذين يقفون للناس بالمرصاد.

المختار هو إنسان لا يمتلك الرحمة في قلبه يظلم الأمّ ويشتمها ويعذّبها، والمرابعون يواجهون الأمر نفسه، ولا يكتفي بظلم المرابعين بل يضطهد زوجه، ولا يقدّرها وهمّه الأكبر جمع المال، والسيطرة على المرابعين، فهو يهدّد الأم بأنّه سيشنقها على شجرة التوت.

كان حنّا أفقر من الفقراء الذين في المدرسة كلّهم، وبسبب ذلك عانى أشكال الهوان فلم يسمح له بدخول الكنيسة يوم الأحد بسبب ثيابه البالية، ولا الخروج في الجنازات، ولم يستطع دفع أربعة قروش للذهاب في رحلة إلى أنطاكية، وقد لاقى جرّاء ذلك عقوبة شديدة من المعلمة؛ لأنّها سألته عن سبب عدم دفعه أربعة قروش، ولم يرد وعاقبته ولم يجب، وعندما اشتدّت عليه العقوبة استأذن ابن خاله بالردّ فأخبر المعلمة بأنّه فقير، وأمه خادمة.

في ذلك اليوم رغب بالموت والرحيل إلى يسوع مع أمّه وأخته الضريرة حتى يريحه من عذابه، وبقي وقت الاستراحة في الصف فدخلتِ المعلمة ونادته فأقبل عليها، ومسحت شعره وقبّلته، ثم أعطته خمسة قروش ليشترك في الرحلة، ولكنّه رفض، وعلمت بذلك مدى إحساسه المرهف، فصارت قريبة منه، وقبلاتها مسحت كلّ ما تبقى من آثار ضربها على جسمه، وصار يحمل لها باقة من الزهور يضعها على طاولتها.

كان حنّا مجتهداً في المدرسة، وعندما ترفّع إلى الصف الثالث الابتدائي عرض المدير إعفاءه من أجرة المدرسة على الجمعية الخيرية للطائفة، فوافقت؛ لمعرفتها بفقره، ولأنّ أمه وأخته خادمتان عند اثنتين من أعضاء الجمعية، وقد كان اسم الوالد مسجّلاً في قائمة الفقراء الذين يُوزّع عليهم الطحين والسمن والسكر في عيدي الميلاد والفصح، ويتمّ التوزيع في بهو المدرسة. وقد كان حنّا يتحرّج من وقوف أمّه في صف طويل مع النساء الفقيرات، ويبقى في صفّه لا يخرج إلى الباحة، ولكن حدّثه يوماً أحد العمال: بأنّ الفقر ليس عاراً بل العار أن يخجل من كونه فقيراً فغيّر نظرته.

عملتِ الأخت الصغرى بدل أمّها حتى تلد على أمل أن تعود بعد ثلاثة أشهر إلى البيت، ولكنّ الأمر استمرّ مدّة طويلة إلى أن تركت الأسرة لواء اسكندرونة، وقد كان حنّا يقدّر عمل أمّه وأخته فقد كانت تجلب الأخت الكبرى قبل أن تعمل الأخت الصغرى خادمة مكان والدتها يوم استراحتها له ولأخته أشياء طيّبة تخبّئها في منديل يمكن أن تكون زبيباً أو حبة جوز أو سكاكر.

أمّا الأخت الضريرة التي كانت تحزن الأسرة؛ لأنها لم تبصر النور، وإذا مشت تتعثّر بما هو أمامها فقد ماتت، وهي صغيرة بعد أن مرضت أياماً، ورأت الأم بأنّ الله قد رحمها، واقتنع حنّا بأنّ موت الأخت كان راحة لها، وبعد وفاتها بشهر ولدت الأم بنتاً، سليمة البصر، ففرحت العائلة بتلك الطفلة.

شارك حنّا في النضال ضد المستعمر الفرنسي منذ السنة الثانية عشرة من عمره فقد كتب على جذوع الأشجار اسماً لرجل ثوري حيث كان يرفعه الرجال على أكتافهم لكتابته،

وهم بعدها يقومون بحفره بسكاكينهم ولو كان ما يفعله يبدو صغيراً، ولكنّه كان تعبيراً عن تحدّي المستعمر الفرنسي ورفضه.

وفي الخريف انتقل في بدء العام الدراسي من المدرسة الأرثوذكسية إلى المدرسة الرشدية، وقد ترفّع إلى الصف الرابع، وكان شكل حنّا الجسدي لا يساعده على ضبط الطلاب فقد كُلّف عريفاً لنيله المرتبة الأولى، ولكنّ طالبَين ساعداه في ضبط الطلاب، فاستطاع بذلك التغلّب على تلك العقبة.

في موسم الحصاد رحل الوالد ومعه مجموعة من أبناء الحي إلى سهل العمق لجمع سنابل القمح، وبيع الحلوى مع أنّ الوالدة حاولت إقناعه بعدم الذهاب ولكنّه رفض؛ لأنّ رغبة الرحيل عاودته، وقد أغرى حنّا ركوب السيارة، فطلب من الوالد اصطحابه معه، وخالف بذلك رغبة أمّه.

بدأ حنّا يعمل باقتلاع شجيرات العدس اليابسة، وكان ذلك العمل لا يكلفهم عناء، وقد تحمّس لذلك، حذّره الوالد من إجهاد نفسه، وأن يضع منشفة على رأسه لتحميه من الشمس ولكنّه لم يلتفت للنصيحة، وعند الظهر شعر بألم كبير في كفّيه، فأمره والده أن يستريح وفي اليوم الآتي انقطع عن العمل؛ لأنّ شيخ العشيرة الذي سهر الوالد عنده علم أنّ حنّا يقرأ ويكتب فطلب منه أن يقرأ له أيّ شيء يسلّيه فقرأ له كتاباً صغيراً للأغاني المعروفة في ذلك الوقت، وقد أخبره والده في طريق العودة إلى الكوخ بأنّ الشيخ طلب أن يعطوه حصته من دون أن يشتغل.

بعد الانتهاء من حصاد العدس والحمّص، بدأ أوان حصاد القمح فذهب الوالد لجمع السنابل، وقد أوصى الشيخ بحنَّا أن يجمع السنابل من حيث يشاء.

عمل حنّا حمّالاً مع بعض الأولاد الفقراء الذين كانوا ينتظرون عند مدخل المصيف ليحملوا حقائب الركاب وكان حظّه قليلاً بسبب حيائه، وضعف بدنه ولم يُوفّق في ذلك إلّا ظهراً حين كانت تكثر السيارات القادمة من المدينة، وفي ساعات العطلة بين الضحى والظهر كان يعرض خدماته على صاحب المقهى، وهو رجل يونانيّ يدعى يورغو فيغسل الصحون أو يحمل النار للأراكيل، أو يذهب إلى البيت يحضر له ما يحتاجه منه.

وُفّق في ذلك المكان، ووجد أنّه بمقدار ما في الحياة من أشرار فيها أخيار، وكان يورغو من بين الأخيار الذين ساعدوا أمّه حين توقّفت عن العمل؛ لأنّها أصيبت بالروماتيزم. وفي نهاية أيلول فرغ المصيف، وطلب يورغو من حنّا العمل معه في مقهى له في المدينة لكنّه رفض بسبب المدرسة.

صارت إسكندرونة مسرحاً لأحداث متواصلة، وحاول عرب اللواء أن يمنعوا كارثة التتريك، وقد سعت فرنسا إلى إعطاء اللواء لتركيا فقال حنّا في ذلك: "كان الانتداب الفرنسيّ قد قرّر، بالتواطؤ مع دول أخرى أن يقتطع اللواء من جسم سورية. ويعطيه لتركيا، وكانت سورية وهي محكومة بهذا الانتداب، تناضل بغير جدوى لإحباط المؤامرة، وهكذا غدا اللواء مسرحاً لصراع سياسي..."

قامتِ المظاهرات الرافضة لذلك الوضع، وذات يوم أُعلِن أنّ الجيش التركي سيدخل اللواء ودخل فعلاً، وكان على السكان أن يختاروا الهجرة، أو البقاء وقد اختار أهل حنّا الهجرة إلى اللاذقية. قبل الهجرة إلى اللاذقية بثلاث سنوات حصل حنّا على الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٦، وقد زاول أعمالاً أخرى بعد أن ترك المصيف ومن تلك الأعمال عمله في المرفأ، وأجيراً في دكان لتأجير الدراجات، ثمّ أجيراً في دكان حلّاق، وقد كتب

رسالة إلى ابن عمه في اللاذقية يسأله فيها إذا كان يستطيع العمل في اللاذقية إن هاجر لكنّه أهملها.

كُتِب على العائلة الهجرة من مكان إلى آخر من اللاذقية إلى السويدية ومنها إلى قرية الأكبر في ريف أرسوز، وقره أغاش وحي الصاز في إسكندرونة وفي كلّ مدينة أو قرية يمضون سنوات، وخدمتِ الأم في بيوت الناس، وكذلك أختاه، ورحل الوالد من مكان لآخر وكان يعود كلّ مرّة خائباً. وبالحديث عن هجرتهم إلى اللاذقية اضطروا للمبيت في المقبرة وأخرج الجميع ما تبقى من زواداتهم لطعام العشاء، وبعد ذلك تحدّثوا عن الظروف السيئة والهجرة، أمّا حنّا فكان فاقداً لشهيته يخالجه شعور أن تنشق القبور، ويخرج منها الموتى بأكفانهم.

كان الأب ينتظر أخاه الذي لم يرَه منذ أربعة عشر عاماً، وكانت زوج أخيه متفاجئة من أعداد المهاجرين التي لم تستطع استقبالهم في بيتها لكثرتهم. شعر حنّا في تلك الليلة بإرهاق عصبي، وتمنّى أن يرقد في المقبرة مع الراقدين ولا ينهض أبداً، وقد شعر بالأرق بسبب أفكاره الكثيرة. حصلوا على بيت في حي القلعة بعد بحثهم مدّة ثلاثة أيام، استأجروا غرفة في دار قديمة كانت الدار في زقاق يتفرّع من شارع فرنسا عند دكان المختار، ويتّجه نحو حي العوينة مقابل مقهى يزبك، كانت الدار رطبة معتمة. كان حنّا يتساءل عن سبب ذهابه إلى البراري والبحر والشوارع، وابتعاده عن الناس وقد رأى أنّ ذلك يعود إلى رغبته في التفكير بالناس، وبنفسه من خلالهم، وقد كان القاسم المشترك بينه والناس الحياة الشاقة الخالية من الفرح.

ذهبتِ العائلة إلى ريف اللاذقية للعمل في جمع الزيتون، وهناك أحبّ حنّا فتاة تُدعى رئيفة، وحاول قدر المستطاع أن يخفي حبّه عن عيون الرقباء فكان يقول: "وكنتُ في حبّي هذا، أخشى العيون، وأنأى به عن المظان، أصونه في الحدقتين وأمشي إليه كأنّني على جمر، شاعراً في كل خطوة، أنّه ثمّة من يراقبني، ومن يحصي عليّ أنفاسي."

وقف الفقر وأفكار والد رئيفة الخاضعة للخواجه عائقاً في وجه ذلك الحبّ والحاجز الأكبر الفقر الذي تمثّل ببنطاله القصير، مضى في اليوم الآتي إلى الكرم وحين رأته رئيفة ابتسمت، وتوقفت عن العمل، وأحسّ أنّها طفلة على الرغم من نضج أنوثتها، وكان من الممكن لو كان شخص آخر في مكانه لأقام معها علاقة على أساس غريزي بحت، يقبّلها، يضمها، يختلي بها.

تحدثت معه عمّا جرى بينه ووالدها الليلة الماضية، وسألته إن كان متضايقاً من أبيها ومنها ولكنّه نفى ذلك، ورأت أنّ ما يفعله الوالد هو وفاء لأسياده فرفض أن يكون ذلك وفاءً؛ لأنّ الأسياد لم يُحسنوا إليهما، فسألته إن كان يحبّها فأجابها بأنّها ليست حبيبته وذلك لمصلحتها؛ لأنّه فقير وهي بحاجة إلى زوج، رئيفة قبلته كما هو، وأحبّته، فقال لها بأنّه إن أنكر أنّه يحبّها فهو كاذب، ولكنّه ضحّى بحبّها لأجلها؛ لأنّه سيرحل بعد انتهاء الموسم إلى المدينة ولن يراها بعد ذلك.

مرضت رئيفة، ولم يعرف والدها سبب مرضها، والذي زاد من مرضها أنّها لا تستطيع أن تكتب، ولا تجد من يحمل إليه رسالتها لو كُتِبت، حاولت أن تتماسك وقفت في الطريق الذي يمرّ به، تجادلت كثيراً معه، وقد أراد حنّا مينه أن يتراجع في أول الطريق بسبب فقره، لم تطلب رئيفة منه الزواج، بل أن يكون له قلب، ويعاملها بحنان.

أوجه التّشابه:

انتهت سيرة حنّا مينه سنة ١٩٣٩م عندما بلغ عمره خمس عشرة سنة، ويعني ذلك توقّف سيرة حنّا في بداية مرحلة الشباب، وأنهى مكسيم غوركي كتابة أحداث سيرته أيضاً كما أنهاها حنّا مينه في بداية شبابه عندما كان عمره تسعة عشر عاماً.

بالحديث عن الأوضاع الاقتصادية فقد عانى مكسيم وحنّا مشكلة الفقر، ولكن بدرجات متفاوتة وصل فقر حنّا مينه درجة دفعته إلى أكل الأعشاب، فالوالد كان مستهتراً راغباً دائماً بالشرب والنساء، ولا يهتمّ لأوضاع الأسرة إضافة إلى رغبته المتواصلة في السفر، وعدم نجاحه في مهنة معينة، ويقع على عاتق أمّه تحمّل مسؤولية أولادها بسبب استهتار الأب، وقد عمل حنّا في حصاد الحمص، والعدس وجمع السنابل وحمالاً في المصيف وفي مقهى وفي المرفأ وأجيراً لتأجير الدراجات وأجيراَ في دكان حلاقة، وفي قطاف الزيتون.

فقدَ مكسيم والده وهو طفل في الرابعة من عمره أي عام ١٨٧٢، وهذه مصيبة في حياته، فاضطر إلى الرحيل مع والدته إلى بيت جدّه، وهنالك عانى الفقر عندما طلب منه جدّه أن يخرج بين الناس فعمل أعمالاً كثيرة وشاقة لتأمين لقمة العيش حيث عمل بائعاً للأحذية، وعند بيت أخت الجدّة، وحمّالاً في الميناء، وغسّالاً للصحون على ظهر باخرة، واصطاد العصافير، وجمع الجوز الذي خبّأته السناجب للشتاء، وعمل في أرض المعرض، وأيضاً عند رسّام للأيقونات، وعند خبّاز، والأجر الذي كان يتقاضاه لا يتناسب وتعبه، ولا يكفيه لسد رمقه.

الأوضاع الاجتماعية: كان الجهل مناصراً للفقر؛ لأنّ الناس كانوا يعملون فقط ليقتاتوا لذلك لم يكن لديهم وقت للتعليم، ونسبُ الذين يقرؤون، ويقومون بتعليم الأطفال قليلة جداً، وأذكر أنّه عندما مرض حنّا مينه، وطُلِب منه تبرير غيابه بحثت أمّه في القرية عن شخص يكتب لها ذلك، ولكنّها لم تجد وأخيراً كتب لها شخص يعمل في الفحم بعض الأحرف غير المفهومة، وعندما ذهب إلى المدير لم يفهم منها شيئاً فتبيّن أنّه لا يعرف الكتابة.

أمّا الأحداث السياسية فقد أثّرت في حنّا؛ وذلك عندما تمّ سلخ لواء إسكندرونة عن سورية سنة ١٩٣٩ فأدّت تلك الأحداث إلى هجرته من اللواء إلى اللاذقية، والعمل في ريفها بقطاف الزيتون، وقد عانى الفلاحون ظلم المطعون والشوباصي. وتحدّث مكسيم غوركي عن قهر الفلاحين وجوعهم، وقد حاول مكسيم أن يرشدهم إلى طريق الخلاص من خلال توعيتهم.

وقد أشار الدكتور ماجد علاء الدين إلى وجود تشابه بين شخصية حنّا مينه، ومكسيم غوركي رأى أنهما صورة مصغرة عن شعبيهما في تلك المدّة التي عاشاها يقول: "وإذا دققنا في شخصيتي ألكسي بيشكوف (مكسيم غوركي) الشاب، وحنّا مينه أيام طفولته، كما صوّرها لنا في روايتي "بقايا صور" و"المستنقع" لاتضح لنا الكثير من التّشابه في مصيري الكاتبَين... وكان كل من الكاتبَين صورة مصغرة عن تطور شعبه خلال جيله..."

إذا كان غوركي عظيماً بأدبه وشخصيته وفكره الذي أصبح صديقاً لمؤسس الدولة الاشتراكية الأولى، وأقصد بذلك لينين، فإنّ حنّا مينه بلا أدنى شك هو من أهمّ الروائيين العرب، فهو من الذين شاركوا في تأسيس اتحاد الكتّاب العرب عام ١٩٦٩ في دمشق

ويشير في الجزء الثاني من سيرته الذاتية وهو "المستنقع" ١٩٧٧ إلى تأثّره بمكسيم غوركي يقول حنّا مينه: "وعندما وقع في يدي كتاب مكسيم غوركي بعد ذلك بأعوام طوال، قرأت ما عانى المناضل الثوري في العهد القيصري..."

موهبة الكتابة: كانت جدّة مكسيم تحتضنه وتروي له الحكايات الأسطورية ولغيره من الجيران فبثت فيه الرغبة في الرواية ومن ثمّ الكتابة، وكذلك الأمر والدة حنّا كان لها دور كبير في صقل موهبة ابنها فقد جعلت من رواياتها عن نفسها وأسرتها وجيرانها التي كانت تحكيها لابنها مادة غنية للكتابة، وشاركت في تحريك أعماق حنّا، والإحساس بمن حوله من الناس والطبيعة ليكون كلّ ذلك مادة دسمة لأديب يمتلك مدارك عقلية متفتّحة منذ الطفولة. كان لدى حنّا نهم للقراءة منذ الطفولة حيث كان يصطحب الكتاب إينما ذهب، ويعدّه أثمن الأشياء بالنسبة إليه، ومكسيم الذي لُقِّب بحشرة الكتب، فقد كان يقرأ الكتب التي كانت تقدّمها له الملكة مارغو وزوج الخياط، وكان ذلك أجمل أوقاته، وأغلب قراءته كانت في الليل.

تميّز مكسيم بجرأة عالية في الحديث عن العلاقة التي تقوم بين المرأة والرجل وبصراحة مطلقة، وقد شابه مكسيم في صراحته حنّا مينه فكان يتحدث عمّا يراه بصراحة. مكسيم غوركي من أهم مؤسسي الواقعية الاشتراكية، وقد تأثّر حنّا مينه بمكسيم غوركي وواقعيته الاشتراكية، فقد تحدّث كلّ منهما عن معاناة الفلاح والعامل، حاولا إنصافهما، وظهر ذلك من خلال سيرتهما ومؤلفاتهما.